الفصل الثانى

مجالات الصبر فى القرآن

وللصبر فى القرآن مجالات كثيرة يجمعها أحد أمرين : إما حبس النفس عما تحب ، أو حبسها على ما تكره . ولهذا الإجمال تفصيل فى كتاب الله تعالى .

١- الصبر على بلاء الدنيا

فهناك الصبر على بلاء الدنيا ونكبات الأيام . وهذا ما لا يخلو منه بَرٌّ ولا فاجر ، ولا مؤمن ولا كافر ، ولا سيد ولا مسود ، لأنه راجع إلى طبيعة الحياة ، وطبيعة الإنسان ، وما رأينا أحداً يسلم من آلام النفس ، وأسقام البدن ، وفقدان الأحبة ، وخسران المال ، وإيذاء الناس ، ومتاعب العيش ، ومفاجآت الدهر .

وهذا ما أقسم الله على وقوعه حين قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٧).

وهذا النوع من الصبر هو الذى لا يخطر ببال الكثيرين غيره ، ويمثله فى القرآن صبر أيوب على مرضه وفقد أهله ، وصبر يعقوب على فراق ولديه (يوسف وأخيه) وكيد أبنائه وكذبهم عليه .

وسنعود لتفصيل ذلك عند الحديث عن النماذج أو الشخصيات الصابرة فى القرآن .

٢- الصبر عن مشتهيات النفس

وهذا مجال آخر من مجالات الصبر ، هو الصبر عما تشتهيه النفس ، ويميل إليه الطبع ، من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها ، التى يسوق إليها الهوى ، ويزينها الشيطان .

(أ) وهنا نجد فى هذا المجال الصبر عن الاستجابة لمتاع الحياة الدنيا وزينتها إذا أقبلت على الإنسان . وتبدت له كالحسناء اللعوب ، فهذا لون جديد من الابتلاء .

إنه الابتلاء بالسَّرَّاء لا بالضَّرَّاء ، وبالغنى لا بالفقر . وقد قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (الأنبياء:٣٥)، وقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ (الفجر:١٥،١٦) فجعل الإكرام والتنعيم ابتلاء ، كالتضييق فى الرزق سواء .

والمؤمن محتاج إلى الصبر عن ملاذ الدنيا ، فلا يطلق لنفسه العنان للجرى وراء شهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فيها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان . .

ولهذا قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى (جمع عافية) لا يصبر عليها إلا صِدِّيق .

وقال أحدهم : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

ولما فُتحت أبواب الدنيا على الصحابة ﷺ قال بعضهم : ابتلينا بفتنة الضَّرَّاء فصبرنا ، وابتُلينا بفتنة السَّرَّاء فلم نصبر .

قال الإمام الغزالى : « وإنما كان الصبر على السَّرَّاء أشد ، لأنه مقرون بالقدرة ، ومن العصمة ألا تقدر . . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء . » [1].

ولهذا حذَّر الله عباده من فتنة الأموال والأولاد والأزواج وشهوات الدنيا جمعاء ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (التغابن:١٥) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المنافقون:٩) ، ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ

---

(١) إحياء علوم الدين جـ١ صـ ٧٠ .

وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:١٤،١٥) ، ووصف الله هؤلاء الذين اتقوا من عباده فقال : ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران:١٧).

قال الغزالى :« فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . ومعنى الصبر عليها : ألا يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وعسى أن يسترجع على القرب ، وألا يرسل نفسه فى الفرح بها ، ولا ينهمك فى التنعم واللَّذة واللَّهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونه ، وفى لسانه بالصدق ، وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه »[1].

(ب) وثمت مجال آخر للصبر عن الدنيا وزينتها . إنه الصبر عن التطلع إلى دنيا الآخرين ، والاغترار بما ينعمون به من مال وبنين . وبخاصة الطغاة المغرورون منهم . فإن ما بأيديهم إنما ظاهره نعمة وباطنه نقمة : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٥،٥٦)، وفى هذا خاطب الله رسوله بقوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١).

فالمؤمن حقاً هو الذى يعتز بما آتاه الله من نعمة الهداية إلى الإيمان ، والتوفيق إلى الطاعة ، ويعلم أن المال ظل زائل ، وعارية مستردة ، ولا يُبالى بمظاهر الأُبُّهة والزينة التى يتمتع بها أصحاب الثروة والسلطان . وهذا ما وصف به القرآن أهل البصيرة من قوم موسى ، الذين خرج عليهم قارون فى زينته وفخامة موكبه ، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا فى تمن وتحسر : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:٧٩).

---

(١) إحياء علوم الدين جـ١ صـ ٦٩ .

أما موقف أهل العلم والإيمان وذوى البصيرة والصبر ، فهو ما ذكره القرآن : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (القصص:٨٠).

(جـ) ونجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعى الشهوة ، وبخاصة الشهوة الجنسية العاتية ، التى اعترف الإسلام بقوتها ، وضعف الإنسان أمامها ، إذ شرع له النكاح ، وأباح له أن يتزوج الإماء (الجوارى) المؤمنات ، إذا لم يستطع أن يتزوج الحرائر . وقال فى ختام هذا السياق : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء:٢٨)

ورغم إباحة زواج الإماء المؤمنات هنا نجد القرآن يحث على الصبر عنه لما وراءه من رق الولد . فيقول : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النساء:٢٥).

فالصبر هنا صبر عن الاستجابة لداعى الشهوة مع أنها مباحة ، فكيف إذا كانت محرَّمة ؟

هنا يكون الصبر حتماً لازماً ، والاستعفاف فرضاً قاطعاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النور:٣٣)

وخير من يمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن هو يوسف الصدِّيق عليه السلام الذى راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وغَلَّقت الأبواب وقالت : هِيت لك . قال : معاذ الله ! وسنعرض لموقفه فيما بعد بتفصيل .

(د) وهنا نجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعى الغضب ، ومقابلة السيئة بمثلها ، أو بأكثر منها ، بأن يكيل للمعتدى الصاع صاعين ، ويرد له الضربة ضربتن ، والشتمة شتمتين . وهذا هو الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل:١٢٦)، وقوله : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ

وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الشورى:٤١-٤٣).

ويمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن خير ابنَىْ آدم الذى هدده أخوه بالقتل ، فكان رده الحاسم البين : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:٢٨).

٣- الصبر على طاعة الله

وهذا مجال ثالث للصبر ، وهو الصبر على طاعة الله تعالى ، والقيام بواجب العبودية له سبحانه . وفيه جاء قوله جل شأنه خطاباً لرسوله : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥)؟ ، وقوله أيضاً : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه:١٣٢).

وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر «اصطبر» مكان الصيغة المعتادة «اصبر» لأن الافتعال يدل على المبالغة فى الفعل ، فزيادة المبنى تدل فى العادة على زيادة المعنى . وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها . وفيها يقول الشاعر الصالح :

إنى ابتليت بأربع يرمينى ... بالنبل عن قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسى والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

وثمت معنى نفسى عميق الأغوار ، بجعل طاعة الله وعبادته صعبة على نفس الإنسان ، وقد نبَّه على هذا المعنى الإمام الغزالى فى إحيائه فقال : «الصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهر فرعون من قوله : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات:٢٤) ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه . وما من أحد إلا وهو يدَّعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو

تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره ، فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ، ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء .

فإن العبودية شاقة على النفس مطلقاً ، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يُكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يُكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال :

الأولى : قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبَّه صلوات الله عليه إذ قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (البينة:٥)، ولهذا قدَّم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (هود:١١)

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ، ولعله المراد بقوله تعالى : ﴿ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ (العنكبوت:٥٨،٥٩) أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب وعن كل ما يُبطل عمله ويُحبط أثره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد:٣٣)، وكما قال تعالى : ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ (البقرة:٢٦٤) فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل ، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً ، وقد جمعهما الله تعالى فى قوله :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل:٩٠) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى والمروءة وصلة الرحم ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر[١].

وأبرز من يُمثِّل هذا النوع من الصبر فى القرآن : الخليل إبراهيم ، وابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام،وذلك حين جاء إبراهيم الوحى فى الرؤيا بذبح ابنه ، فلم يتلكأ فى طاعة الأمر ، وعرض على ابنه فلم يتردد ، وأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه ، طاعة لله تعالى ، كما سنفصل ذلك بعد .

٤- الصبر على مشاق الدعوة إلى الله

وهذا مجال رابع لخُلُق الصبر فى القرآن ، وهو الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى ، وما يحف بها من متاعب وآلام ، تنوء بها الظهور ، وتضعف عن حملها الكواهل إلا من رحم الله . وذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم وموروثاتهم ومألوفاتهم ، ويثوروا على شهوات أنفسهم ، ومعبودات آبائهم ، وعادات أقوامهم ، وامتيازات طبقاتهم ، وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم ، ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى ، وأحلَّ وحرَّم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعاتها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالاً ، وأعز نفراً ، وأقوى نفوذاً ، وأوسع سلطاناً .

فليس أمام دعاة الحق إلا أن يعتصموا باليقين ، ويتسلحوا بالصبر فى وجه القوة الضارية ، والسلطة الطاغية . فالصبر هنا ـ كما قال الإمام علىّ : سيف لا ينبو ، ومطية لا تكبو ، وضياء لا يخبو ، وكما جاء فى الحديث الصحيح : «الصبر ضياء» .

وهذا هو السر فى اقتران التواصى بالصبر بالتواصى بالحق فى سورة العصر : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ (العصر:٢،٣) فلا بقاء للحق بغير صبر .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ .

وهو السر فيما ذكره الله على لسان لقمان الحكيم حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من بلاء وأذى عقب وصيته له بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال الله تعالى على لسانه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (لقمان:١٧).

كأنه يقول له : ما دمت تدعو الناس إلى الخير ، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، فَوَطِّن نفسك على احتمال المكاره منهم ، وتقبل الأذى من جهتهم فهم خصوم لمن يأمرهم بالمعروف ، لأنه ثقيل عليهم ، وينهاهم عن المنكر ، لأنه محبب إليهم .

ومشاق الدعوة إلى الله تتمثل فى صور شتى ، وقد ذكر القرآن منها أنواعاً وأمثلة :

(أ) تتمثل فى إعراض الخلق عن الداعية . فليس أشق على نفس صاحب الدعوة أن يدعو بملء فيه ، ويصيح بأعلى صوته ، بشيراً ونذيراً ، فلا يجد إلا آذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً !

رأينا ذلك مع نوح عليه السلام ، حيث قال مناجياً ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾(نوح:٥-٧).

ورأينا ذلك مع هود عليه السلام حين قال له قومه : ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (هود:٥٣).

ورأينا ذلك مع خاتم الرسل محمد ﷺ ، حيث وصف الله حال قومه معه فقال : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ (فصلت:١-٥).

ولهذا قال الله لرسوله :﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾(النحل:١٢٧)

وأوضح من يمثل هذا النوع من الصبر : نوح عليه السلام ، حيث لقى الإعراض والصد ما لم يلقه نبى بعده .

(ب) وتتمثل متاعب الدعوة فى أذى الناس بالقول أو الفعل . فليس أشد على نفس الرجل المخلص فى دعوته ، البرىء من الهوى ، المحب لخير الناس ، من أن يمحض لهم النصح ، فيتهموه بما ليس فيه ، وأن يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة فيردوه بالقوة ، ويعظهم بالحسنى ، فيستقبلوه بالسوأى ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، فيقاوموه بالتى هى أخشن ، ويدلهم على الخير ، فيقذفوه بالشر ، ويصدع فيهم بكلمة الحق ، فلا يسمع منهم إلا كلمة الباطل .

وقد لا يقف الأمر عند هذا الحد ، فكثيراً ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبها ، وإلى الأبدان فيعذبها ، وإلى الحريات فيسلبها ، والحرمات فينتهكها ، بل إلى الأنفس فيقتلها ، حتى الأرض التى نبتوا منها ، وشبوا عليها ، ونشأوا فى أحضانها ، هم وآباؤهم وأجدادهم يُخرجون منها إخراجاً .

وهذا ما أقسم القرآن على وقوعه للداعين إلى الله ، حيث خاطب بذلك المؤمنين ليوطنوا أنفسهم على الصبر الطويل فقال : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦).

ومن هنا أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه بمثل قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل:١٠).

والأنبياء جميعاً يمثلون هذا النوع من الصبر . ولهذا حكى الله على لسانهم هذا القول رداً على أقوامهم : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم :١٢).

وعزَّى الله خاتم رسله بما حدث لإخوانه من قبله فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(الأنعام:٣٤)

ومن أتباع الرسل ذكر لنا القرآن هنا مثلاً رائعاً يتجلى فى سحرة فرعون ، حين وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون . وعندها قال لهم فرعون : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٣،١٢٤).

فماذا كان موقف السحرة إزاء هذا الوعيد الهادر من ملك جبار يقول للناس : أنا ربكم الأعلى ؟

لقد وقفوا بإيمانهم الجديد كالجبال الشم ، متحدين جبروت فرعون ، مستعدين لكل ما يُرغى به ويُزبد ، سائلين الله تعالى أن يُفرغ عليهم صبراً يتحملون به العذاب راضين ، ويستقبلون به المكاره مطمئنين .

ومن هنا قالوا : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٥،١٢٦).

(جـ) وتتمثل مشاق الدعوة كذلك فى صورة أُخرى هى طول الطريق ، واستبطاء النصر ، فقد جعل الله العاقبة للمتقين ، وكتب النصر لدعاة الحق من رسله وأتباعهم وورثتهم المؤمنين . ولكن هذا النصر لا يتحقق بين عشية وضحاها ، ولا تشرق شمسه إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة ، تزيغ لهولها الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنون ، هنالك يُبتلى المؤمنون ويُزلزلون زلزالا شديداً ، كما صوَّر القرآن الحالة النفسية للمسلمين فى غزوة الأحزاب .

وكم أكد القرآن هذه الحقيقة فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب ، فهو يخاطب المؤمنين فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:٢١٤).

يقولون متى نصر الله ؟ استبطاءً له ، واستعجالاً لمجيئه ، فيجيء معه الغوث للملهوف ، والفرج للمكروب .

ويقول جل شأنه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠).

٥- الصبر حين البأس

ومجال آخر يذكره القرآن للصبر هو الصبر حين البأس ، أى الصبر فى الحرب حين لقاء الأعداء ، حيث يصبح الفرار كبيرة موبقة ، ويصبح الثبات فريضة لازمة . فالصبر هنا شرط أساسى للنصر ، وعنصر ضرورى للغلبة على العدو ، وقديماً قالوا : الشجاعة صبر ساعة . ومن هنا أثنى القرآن على الصابرين فى آية البر ، فقال : ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ (أى الفقر) وَٱلضَّرَّآءِ (أى المرض) وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ (أى الحرب) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وفى سورة الأنفال وهى السورة التى نزلت بعد غزوة بدر الكبرى يقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٤٥-٤٧) . فوضع ستة شروط أولها : الثبات . وخامسها : الصبر ، وهما من باب واحد ، فلا ثبات بغير صبر .

ويؤكد القرآن الأمر بالصبر بهذه الفاصلة التى ختمت بها الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ ليغرى الأنفس به ، ويثبت القلوب عليه .

وفى نفس السورة يربط القرآن بين الصبر فى القتال والغلبة على العدو ، فيقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٥، ٦٦).

وأعظم ما تشتد به الحاجة إلى الصبر فى الحرب عندما ينفرط العقد ، وتميل الريح ويضطرب الأمر ، وتشيع روح الهزيمة فى المقاتلين ، وتنتشر الشائعات المثبطة للهمم ، المحطمة للعزائم ، كما حدث فى غزوة أُحد ، بعد أن أخلى الرماة أماكنهم فانكشف جيش المسلمين ، وانقض عليهم فرسان المشركين من الخلف ، فاضطرب الميزان ، وانتشر الذعر ، وشاعت الشائعات بأن رسول الله ﷺ قد قُتِل ، فأوهن ذلك صفوف المسلمين وفت فى أعضادهم ، وزلزل روحهم المعنوية ، ففر الأكثرون وبقى الأقلون ، وهنا نزل القرآن يشيد بالذين ثبتوا وصبروا وينكر على الذين تولوا وأدبروا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (آل عمران:١٤٢،١٤٣) ولا يجعل لهم عذراً فى الفرار من المعركة ، ولو كان قد صح ما أُشيع أن الرسول قد قُتل ، يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٤).

إلى أن يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٦).

إن خير من يمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن : طالوت والقلة المؤمنة معه من جنوده ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، على عدد أهل بدر . ولقد عقد طالوت لجنوده امتحاناً فى بادئ الأمر ليختبر صبرهم ، فقال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة:٢٤٩).

هذه القلة التى نفَّذت الأمر ، وأبت أن تشرب الماء وهى ظمأى إلا غرفة باليد ، هى التى نجحت فى الامتحان ، وتبين صبرها عند الشدة . وهى التى اجتازت النهر مع طالوت : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟

رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٤٩، ٢٥٠). طلبوا أولا أن يمنحهم الله الصبر ، لأنه سبيل النصر . ومن روعة التعبير هنا أنهم لم يسألوا الله أى قدر من الصبر ، بل سألوه أن يُفرغه عليهم إفراغاً ، أى يَصبُّه عليهم صباً ، كأنه ماء يُفرغ عليهم ليتطهروا به ويغتسلوا .

وكانت العاقبة انتصار القلة المؤمنة الصابرة على الكثرة الطاغية الكافرة : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ (البقرة:٢٥١). .

٦- الصبر فى مجال العلاقات الإنسانية

وهذا مجال سادس من مجالات الصبر فى القرآن ، وهو مجال الآداب والعلاقات الاجتماعية بين الناس .

فالعلاقات الزوجية لا تستقيم ولا تستقر إلا بأن يكون الزوجان واقعيين يصبر كل منهما على صاحبه ، ويحتمل منه بعض ما لايروقه ، بل بعض ما يؤذيه .

فالحياة تختلط فيها الأشواك بالأزهار ، وتمتزج فيها الآلام بالملذات ، وكل إنسان فيه ما يُمدح وما يُذم ، ومن ذا الذى تُرضَى سجاياه كلها ؟

بل أمر القرآن الرجال بالصبر وإن أحس أحدهم بالنفرة والكراهية فى نفسه قِبَل زوجه ، مُقدِّماً العقل على العاطفة ، والانقياد للأخلاق على اتباع الهوى .

وفى هذا يقول القرآن فى معاملة الأزواج للنساء : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء:١٩).

وجاء الحديث النبوى الشريف يؤكد هذا المعنى القرآنى إذ قال : « لا يفرك (أى يبغض) مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خُلُقاً رضى منها آخر » (رواه أحمد ومسلم).

وهذا النوع من الصبر مطلوب فى علاقة الآباء مع أبنائهم ، والأبناء مع آبائهم ، والأقارب مع أقاربهم ، والجيران مع جيرانهم ، فقد قال علماؤنا : « إن حق الجار ليس هو مجرد كف الأذى عنه ، بل احتمال الأذى منه والصبر عليه » .

ويدخل فى هذا إلجام النفس بلجام الحلم ، وكفها عن الاستجابة لثورة الغضب ودواعى الانفعال ، والحرص على دفع السيئة بالحسنة بل التى هى أحسن ـ كما أوصى القرآن ـ فيحيل هذا السلوك الجميل العدو إلى صديق ، فيكسب إلى صفه قلباً محباً ، بدل أن يضيف إلى أعدائه واحداً .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ (أى هذه الخصلة الحميدة) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٤-٣٦).

ويُعَدِّد القرآن أوصاف أُولى الألباب الذين يستحقون عُقبى الدار ، أى الجنة ، فيقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٢).

إن فرق ما بين الإنسان المتحضر وغيره ، أنه يقدر على ضبط نفسه ، والتحكم فى عواطفه وانفعاله ، وتوجيه سلوكه وعلاقاته الوجهة الإنسانية التى تُرضى الأذواق الراقية والآداب الرفيعة ، ولا تجرح إحساس أحد أو تؤذيه بغير موجب .

وهذا ما يُصوِّره لنا القرآن إذ عرض علينا صورة أُولئك الجُفاة من أعراب البادية الذين جاءوا إلى حجرات أزواج النبى ـ أُمهات المؤمنين ـ ينادون بأصوات جاهرة ، وجلافة ظاهرة : اخرج إلينا يا محمد . غير مراعين ما تقتضيه اللياقة والأدب فى معاملة شخصية مثل شخصية الرسول الكريم ، لها مقامها ومشاغلها وأعباؤها . ولا غَرو أن نزل القرآن يُنَدِّد بهذا المسلك الفج الجافى ، وإن قَدَّر ظروف بداوتهم ، وأعلن العفو والمغفرة عنهم فى النهاية ، وفى هذا يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٤، ٥).

وفى هذا المجال من مجالات الصبر يمكننا أن نُدخل صبر التلميذ مع أُستاذه ، والتزامه بما عقد من شرط ، وإن حجز عنه بعض المعلومات أو الحقائق ، لحكمة يراها ، وخصوصاً إذا صحبه على هذا الشرط ، فالمؤمنون عند شروطهم .

وفى هذا ذكر القرآن قصة موسى والعبد الصالح الذى لقيه موسى مع فتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ (الكهف:٦٥-٧٦).

فقد طلب موسى من العبد الصالح المشهور باسم الخضر ، أن يصحبه ليُعلِّمه مما عَلَّمه الله ، فذكر له أنه لن يستطيع صبراً على متابعته ، وعلَّل هذا بأمر ينبع من دافع فطرى أصيل فى الإنسان ، وهو حب الاستطلاع والرغبة فى استكشاف المجهول ، ولهذا قال لموسى : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ؟ ! (الكهف:٦٨) .

ولكن موسى قَبِلَ مصاحبته مؤكداً له أنه سيصبر على ما يراه منه ، وإن لم يُحَط به خُبراً ، ولم يدرك له سراً : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾

(الكهف:٦٩)

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ يرى من الخضر من المواقف والتصرفات ما لا يملك معه السكوت والصبر فيعترض مرة بعد مرة ، منكراً عليه ما صنع ،

مخالفاً ما وعد به من الصبر . والخضر يُذكره بذلك كلما أبدى اعتراضاً . ففى أول إنكار له قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٧٢) ، وفى المرة الثانية قال : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٧٥)؟

أما فى المرة الثالثة فكانت الفاصلة . وهنا قال العبد الصالح : ﴿ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٧٨)، ويأخذ فى تأويل الحوادث الثلاث إلى أن يقول فى نهايتها : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٨٢)

* * *